

بأن سبحانه، يكون هو الأسفل في كُلِّ شيءٍ، وأن هو الأعلى في كُلِّ شيءٍ. فيجب أن نربّي أنفسنا عليها، فلا يكفي أن ندخلها في عقولنا، فنشعر أن الله هو الأعلى، بل لابد أن ندخلها في قلوبنا، فلا تخفق إلا له سبحانه وتعالى، وإذا خفت لغيره فمن خلاله وحده.

النظام الموزون:

وما هي صفة ربِّك فيما له من صفات قدسية؟ (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) فأن سبحانه فوق كُلِّ شيءٍ، لأنَّه لا يساويه ولا يعادله ولا يماثله شيء، فخلق كُلِّ شيءٍ فسوّاه وأوجده وجعله مستقيماً سوياً في خلقته، فلا تجد مخلوقاً في الكون إلا وهو خلاقٌ الله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) قدَّر لكلِّ شيءٍ حجمه ودوره وعلاقته التي تتكامل مع نظام الكون، فيصبح الوجود متوازناً، لا اختلال فيه (إِنَّا كُنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا ثُمَّ نَحْنُ الْعَادَّةُ) (القمر/ 49)، فادرس - أيها الإنسان - المخلوقات الجامعة والحياة، أدرسها في شكلها وطبيعتها وحركاتها وخصائصها وعلاقاتها مع بعضها، فإنَّك تجد حدوداً لكلِّ شيءٍ فيها، بحيث لا تنقص ولا تزيد عن طبيعة الحد الذي حدَّده الله تعالى، وعلى هذا، فإنَّه (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه/ 50)، بمعنى أنَّه سخَّره لدورٍ محدَّد ووظيفة معيَّنة، ووجَّهه للدور الذي أعطاه إيَّاه.. ولذلك لو أردت أن تدرس علوم الطبيعة والنبات والحيوان والإنسان، وكلَّ خصائص الكون، لرأيت أن كلَّ موجودٍ فيه ينطلق في نظام موزون يتحرَّك على قاعدة إكمال دوره في الحياة. ومعنى الهداية في الآية المباركة، أن الله سبحانه أوكل لكلِّ موجودٍ دوراً بحسب طبيعته، فهدي الشمس والقمر مثلاً لأن ينتجا النور والضياء والدفع والحرارة (لا الشمس ممسوسةً يُنْزِلُ فِيهَا نَارًا أَلَّا تَذُرَّ الْقِمَازَ وَلَا لِلَّذِينَ هَبُوا بِتَنَاهَا أَن تَكُونَ لَهَا سَيِّدًا مَّا نَشَاءُ) (يس/ 40)، وهكذا في الإنسان الذي هداه لمسؤولياته، وفي الحيوان والجماد والنبات (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) (الأعلى/ 4)، ومن العشب والخضرة، التي ترعاها المواشي فتتغذى بها، وتستفيد أنت من لحمها وصفوها وما يُستخرج منها (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاثًا مَّا نَشَاءُ) (النحل/ 80)، وهكذا يبدأ المرعى أخضر طيباً يُبْهِرُ الأنظار، ثم يُصبح يابساً (فَجَعَلْنَاهُ غُثَاءً أَحْوَى) يتحوَّل إلى هشيمٍ يابس (تَذُرُّهُ الرِّيحُ رِجَاحٌ) (الكهف/ 45)، فالغذاء هو ما صار من العشب يابساً (أَحْوَى) أي أسود، أو مائلاً إلى السُّمرة.

وكان الله تعالى يُوحى للإنسان بأنَّه يخلق الأشياء فيُحييها ثم يميتها إظهاراً لعظمته وقدرته، فيتحسَّس علاؤه في كُلِّ ما حوله من الموجودات التي تحيط به، وربما ذكَّر القرآن "المرعى" وحده كونه يرتبط بالأرض، باعتبار أنَّه يمثِّل التجربة الحية التي توحى له بمسألة الحياة والموت (وَاللَّهُ أَنَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ الْأَرْضَ بِعَدَّةٍ مَّوْتِيهَا) (النحل/ 65)، فكما أن الله سبحانه قادرٌ على إحياء الأرض بعد موتها، قادرٌ على إحياء الموتى (إِنَّ اللَّهَ الَّذِي أَحْيَا هَٰذَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (فصلت/ 39).

ثم تنطلق الآيات القرآنية مُوجِّهة لرسول الله (ص) (سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى) (الأعلى/ 6)، نُقرِّئك القرآن وآيات الله ووجَّه قراءته تستقرُّ في عقلك وقلبك وكيانك لتستوعب القرآن في كُلِّ عناصر هذا الكيان، فلا تنسى ذلك أبداً (إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (الأعلى/ 7)، إلا إذا شاء الله لك أن تنسى، ونحن نعرف أن الله تعالى لم يُرد للنبي (ص) أن ينسى أبداً، ولكن ذكر ذلك حتى يُوحى إليه (ص) أن أمره بيد الله، وهو القادر على أن يُقرِّأه فلا ينسى (إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) (الأعلى/ 7)، فعندما يُقرِّئك الله ذلك، ويريد منك أن تبلغه وتعلِّمه وتعمل به وتطبِّقه في حياتك وحياة الآخرين، تذكر هذه الحقيقة، وهي أنَّه سبحانه لا يخفي عليه شيء، فإذا جهرت بالشيء أو أعلنته فإنَّه يعلمه، وإذا أسرته وأخفاه، فكذلك يعلمه، فالجهر والسِّرُّ عنده سواء. أما البشر فيختلف عندهم حال الإعلان عن حال الخفاء، أما هو سبحانه، فالأمر عنده حالٌ واحد، لأنَّه يعرف عمق الأمور وخفاياها، كما يعلم سطحها وطواهرها. وهذه نقطة إيمانية، من الضروري أن تعيش في وعي المؤمن، فكما أن عليه أن يتقي الله في الجهر، عليه أن يتقيه في الإخفات.

وبعد أن يُقرِّئَ الله نبيَّه قرآنه، فإنَّه يسدِّده (وَنُظَيِّرُكَ لَوَيْلٍكَ) (الأعلى/ 8)، نُبيِّسُ خطواتك - يا محمد - ودربك وحياتك ونهجك وكلَّ أمرٍ تتحرَّك فيه. واليُسرى مفسرةٌ بالجنة، أي نبيِّسُ رُكَّ للجنة بتيسير خطواتك نحو مواقع رضى الله وطاعته التي تؤدِّي بك إلى الجنة.

مسؤولية التذكير بالله:

وبعد هذا العرض القرآني لقدرة الله وعلمه، ما هي مهمة رسول الله (ص) ومسؤوليته أمام ذلك؟ (فَذَكِّرْ إِنَّا نَزَعَتِ الذِّكْرَى) (الأعلى/ 9)، وكما أن هذا الخطاب يطلب من رسول الله (ص) أن يذكر الناس بالله تعالى، فكذلك يحمل المسلم مسؤولية الدعوة إلى الله، ومسؤولية التذكير بثواب الله وعذابه.. لأن عليه كمسلم يحمل الإسلام في عقله وحياته - أن يقول كلمة الحق في أن يوقظ وعي الناس نحو الحق، ويوظف في ذلك كل إمكانياته وقدراته، ولا يُغشيط عزيمة تمرّ دهم وابتعادهم، كما يفعل الكثيرون الذين يتخلّون عن دورهم في الدعوة، فيبرّون إنسحابهم من الساحة بسبب أن الله ختم على قلوب البعض وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فما فائدة أن ندعو؟ فالجواب من حولنا يهزأ بنا ويسخر منا، فلماذا نزع أنفسنا، خصوصاً وأن النتائج معروفة هذا منطلق اليائسين الذي يهربون من مواجهة مسؤولياتهم، لأن الله يأمرنا أن نذكر حتى ولو وضعوا أيديهم في آذانهم، فلعل الكلمة تدخل إلى الأذن وتأخذ طريقها إلى العقل والقلب، ثم قد تأتي الكلمة الثانية والثالثة والرابعة، وربما توجد في شخصية من نذكره بالله خزائناً من المواعظ، فيعود إلى الله، كما المطر ينزل خفيفاً خفيفاً، أو نقطة نقطة، فيأخذها الهواء ويجففها، ولكنها تبقى في الأرض شيئاً من الرطوبة، فتأتي النقطة الثانية والثالثة تنزل إلى الأرض فتتحوّل إلى خزان. لذلك، إن علينا أن نذكر من يقبل منا ومن لا يقبل حتى نعدر إلى الله (سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى) (الأعلى/ 10)، من عاش في قلبه الخوف من الله وحسب حساب المصير، وفكر يوم القيامة. وإذا سمع كلمة الله أولاً وثانياً، وكانت الغفلة تحيط بعقله وقلبه، فسوف تفتح كلمات الله ثغرةً هنا في عقله، وثغرةً هناك في قلبه، وثغرةً هناك في شعوره، وستنفتح نفسه كلها على الله تعالى. وأمّا من عطّل سمع الأذن والقلب (وَيَتَذَكَّرُ فِيهَا الشَّقَى) (الأعلى/ 11)، ولم يبد أي استعداد ليفتح قلبه على الحق، وأعلن التمرد، وأظهر الكبر والاستعلاء والاستكبار، وأظهر عدم استعداده لأن يسمع أو يفهم أو يفكر، فما النتائج التي يتحمّلها؟ (الَّذِي يَمْلَأُ الدُّنْيَا الْكُفْرَ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) (الأعلى/ 12-13)، جزاء ضلالهم وفجورهم وفسقهم أنهم يدخلون إلى النار ويأكلون الزقوم ولا يطيقون العذاب، فيتمنون الموت طناً منهم أنهم يتخلّصون من هذا العذاب (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) (الزخرف/ 77)، خلّصنا فليقض ربك علينا بالموت. وبأتيهم الجواب سريعاً (قَالَ إِنِّي كُنتُ مَآكِنُكُمْ) (الزخرف/ 77)، لا، (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا) (الأعلى/ 13)، لا يحس براحة الموت، ولا يحس بطعم الحياة.

هذا الشقي، وأما السعيد (فَدَّ أَفْوَاجَ مَنْ تَزَكَّى) (الأعلى/ 14)، الناجح المفلح الذي تظهر علامات النجاح في دروبه ونهايات أمره، والمطمئن للنتائج الإيجابية في حياته، هو الذي يزكّي نفسه ويطهر برّها، وينمي الطاقات الحية الإيجابية فيها على خط الورع والتقوى، وهذا السعيد، من بقي ذكر ربّه حاضراً في وعيه (وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (الأعلى/ 15)، لم يذكره باللسان وحسب، بل ذكره حضوراً في وعيه في كلّ منطلقات حياته، ولذلك، فإنّه يصلّي، لا من خلال العادة، ولكن من خلال وعيه لمقام ربّه وإحساسه بعبوديته له، وإيمانه بأنّ عليه أن يقوم لربّه في ليله ونهاره.. وهذا هو سرّ الفلاح وسرّ النجاح.

ولكن، ما مشكلة هؤلاء الذين لم يخشوا مقام ربّهم فطغوا واستكبروا وانحرفوا وضلّوا؟ (بَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (الأعلى/ 16)، تفضّلون الحياة الدنيا على الآخرة، كما لو أن الدنيا خالدة لا تنفي، وكما لو أنّها مطلوبة لنفسها، بينما هذه الحياة الدنيا مطلوبة لغيرها (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّاهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص/ 77)، لك حظ في الدنيا، لكن الدنيا ليست كلّ حظّك "الدنيا مزرعة الآخرة" (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى/ 17)، خير من الدنيا وأبقى، لأنّ نعيمها يختلف عن نعيم الدنيا، ومدى الآخرة غير مدى الدنيا، مدى الدنيا هو مدى عمرك، ومدى الآخرة هو مدى الخلود، ونعيم الدنيا ممزوجة بالشقاء والراحة والفرح والحزن، أما نعيم الآخرة، ففرح لا حزن معه، وراحة لا تعب معها، ولذا هي خير وأبقى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (الكهف/ 46).

وهذا الحديث الذي يتلوه رسول الله (ص) عن الله تبارك وتعالى، ليس حديثه وحده، إنّما هو حديث الأنبياء - عليهم السلام - الذين أرسلهم الله ليذكّروا الناس بالله، ليتخذوا طريق الفلاح، بأن يزكّوا أنفسهم ويذكّروا اسم ربّهم ويصلّوا له (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) (الأعلى/ 18-19)، كي يسبّحوا على ما سار عليه الأنبياء، وينطلقوا في الخط الذي انطلق فيه الأنبياء ليصلوا إلى الله من أقرب طريق.

